الكتاب بمجموعه تصوير للصراع السياسي الذي خـــاضه الفلسطينيون منذ اواخر هذا القرن وحتى ١٩٣٩ باسـلوب علمي رصين وبشجاعة وتجرد وموضوعية في معالجة مراحل الصراع ٠

ففي المرحلة الاولى التي سبقت الانتـــداب استعرض ردود الفعل العربية ازاء الطبيعة الاستيطانية للحركة الصهيونية التي أخذت اشكالا عدة من احتجـــاج او مقال او برقية او اعمال عنف وشملت قطاعات الشعب كله (٤) وانتشرت لدى اهل الثقافة السياسية خارج فلسطين نظرا للقناعة العامة لدى هؤلاء ان ما يصيب فلسطين يصيب العرب كلها ، ولم تكن ردود الفعل وليدة الصدفـــة والارتجال كما صورتهـا الدعايـة الصهيونية ، بل نتيجة وعي تام لطبيعـــة الفكرة الصهيونية واهدافهـــا وتهديدهـــا للوجود القومي ٠ ويلاحظ المؤلف انه في حملة المعارضـــة تتجلى ظاهرة الاعجاب الضمني بالتقدم والاساليب التنظيمية في الحركة الصهيونية والادراك بان المعارضة لا تصبح فعالة الا من خلال اكتساب المعرفة والمهارة والتنظيم (ص ٦٨) ٠

وفي المرحلة الثانية كشفت محاولات فرض الصهيونيـــة علـى عرب فلسطين وجه بريطانية الحقيقي ، كما كشفت طبيعة وسائل الحركة الصهيونية في فرض اهدافهـا الامر الذي ادى الى توالي الانتفاضات وتشكيل الجمعيات الاسلامية والمسيحية واثارة المزيد من الاهتمام والتأييد العربيين ٠ المعارضة رغم انها لم تكن فعالة الا انهـــا لم تفشل كليا ، فقد وجدت السلطات البريطانية صعوبة متصاعدة في تطبيق سياســـة موالية ولم تكن المعارضة ، كما صورها وايزمان ، هياج مصطنع او نتيجـــة دعاية (الافندية) التي تخشى ان تفقد مراكزها بسبب المنافسة (ص ١٥٠) بل تثبت التقاريـر البريطانية انها حركة واعية منظمة تعبر عن استياء شعبي عميق الجذور (ص ١٧٧) ٠ وفشلت جهود الادارة البريطانيـــة لكسب الرأي العـــام ، فلم تستطع التغلب على الاساسين اللذين تنبعث منهما المعارضة ، الاساس السياسي والاساس الدستوري ، فالادارة لم تكن في موقف يسمح لها بالغاء التصريح ، كما لم يكن في وسعها ان تغير تكوينها الاستبدادي لتصبـــح دولة تمثل الشعب بالنظـــر الى ان منح حكومة ذاتية للاكثرية العربية لا ينسجم مع سياسة الوطن القومي (ص ١٧٣) ٠

الصراع مع الصهيونية وحد بين مصلحة جميع الطبقات نظرا للطابع الوطني والقومي لهذا الصراع ، الا ان المؤلف يلاحظ ان قيـــادة الوجهاء والملاكين تمسكت بالدور التقليدي الذي كانت تلعبه بين الحاكم والمحكوم كوسيلة للحفاظ على مصالحها ومواقعها الطبقية ، رغم وضـــوح التحالف البريطاني الصهيوني ، فعجزت عن قيادة الشعب في حالات النزاع ٠ ولكنه في مواقع عديدة يفسر ذلك بالصـــراع بين جيلين او ما اسماه « اقدام الشباب واحجام الشيوخ » ، الجيـل الاكبر كان اكثر اعتدالا وبعدا عن المقاومة ويؤثر احداث تغير في السياسة البريطـــانية من خلال التصميم السلمي والاقنـاع السودي والعمـــل الدعائـــي (ص ١٥٧) ٠ (الميثـاق الوطنـــي رغـــم مناوئتـــه للصهيونيـــة لم يتحـــد سلطـة الانتداب بشكل سافـر) ٠ وجيـل صاعد من الشباب المثقـــف يمت في غالبيته الى الطبقة الاولـــى وينتســـب الى الطبقـــة الوسطى ، وكان اكثر قدرة علـــى الحركة واكثـــر خطرا علـــى بريطانيـــا واكثر اتصالا بالقرى ، حيث كان الفلاحون اشد استعدادا للثورة لان لديهم مخاوف حقيقية (ص ١٦٨) ٠

---

٤ ـ يقلل الكاتب من قيمة معارضة الوجهاء فهم حينما يطرحون المشكلة امام البرلـــان ، انمـا يلعبون دور الوساطة الذي يقودوه بين الحاكم والمحكوم ٠